محطات في سيرتي الذاتية

د. فوزي بن عمران

مرحلة السنة الأولى بكلية الطب

بنغازي 1971-1972م

**عندما بدأت تأليف كتاب سيرتي الذاتية؛ خطر لي أن أستبق نـشر الكتـاب بنـشر مقتطفات منه خلال فترة الإعداد التي أعلم أنها قد تطول. وجعلت كل حلقة تدور حول محطة مهمة تتمثل في مرحلة معينة أو علم من الأعلام الذين التقيت بهم أثناء مسيرة نصف قـرن من الزمن، أو مكان يعبر عن تلك المرحلة الفائتة؛ وعنونت الحلقـات حـسب المراحـل أو أسماء أولئك الأعلام أو تلك الأماكن. وآمل أن يحقق النشر على هذه الكيفية عدة أهـداف؛ أولها أن التزامي بالنشر المتعاقب للمقتطفات سيجعلني أمضي قُدماً فيما بـدأت حتـى أتـم الكتاب. والهدف الآخر أن نشرها سيتيح للمعنيين والمهتمين فرصة إثراء ما أكتب بتعليقاتهم وإضافاتهم وتصحيحهم إن بدر مني تقصير أو قصور أو نسيان أو زيادة أو نقصان. وعندما يصدر كتاب السيرة الذاتية سيكون مرتباً زمنياً، ولكنني لن أتحرى الترتيب الزمني في سرد هذه المقتطفات، ولن يدل ترتيب نشرها على أولويات أهميتها في حيـاتي. ولا يفـوتني أن أترحم على أرواح كل من سترد أسماؤهم وقد غيبهم عنا هازم اللذات ومفـرق الجماعـات. أسأل الله لي ولهم المغفرة وأن يجمعني بهم في جنات النعيم.**

بيّنت في المحطة الفائتة (مرحلة إعدادي الطب) كيف تغير قدرنا مرتين؛ الأولى عندما تقرر أن نتوجه إلى كلية العلوم بطرابلس بدلاً من الإيفاد المرتقب إلى الخارج لدراسة الطـب. أما تغيير القدر الثاني فكان بسبب تكاتفنا وسعينا الحثيث إلى أن أوصلنا صـوتنا إلـى قيـادة الثورة فاستجيب لمطالبنا مع بداية الفصل الدراسي الثاني، وشُرع في إقامة كلية الطـب فـي بنغازي كما كان مقرراً لها، وتغير برنامج الدراسة على حساب مد السنة الدراسـية فأنهينـا السنة الإعدادية في منصف خريف عام 1971م، واجتاز معظم المجموعة الامتحان بنجـاح، وتقرر أن نبدأ دراسة السنة الأولى بداية شهر أكتوبر 1971م في المباني المؤقتة التي أقيمـت في بنغازي.

وأنا في طريقي من طرابلس إلى درنة مررت ببنغازي لأشاهد مقر الكلية الجديد الذي سوف ندرس به خلال السنتين اللاحقتين. كان المقر عبارة عن أربعة مبان من النوع المـسبق الإنشاء من دور واحد أقيمت على مساحة من الأرض خلف مستشفى الـسابع مـن أكتـوبر ("البادية" سابقاً و"بوردوتشيمو" قبل ذلك)، وكان الوقت صباحاً في أحد أيام شهر سبتمبر. أمام واحد من تلك المباني قابلت رجلاً في بداية العقد السادس، أنيق المظهر، يرتدي معطفاً أبيض،

شعره الأشيب مصفف بعناية على طريقة الممثل المصري (عماد حمدي)، وكان شديد الـشبه به. علمت لاحقاً أن اسمه (بهاء)، ووظيفته رئيس الفنيين بقسم التشريح، ولكن فـي أول لقـاء صرت أناديه (يا دكتور)؛ وراقه الأمر فلم يصحح لي. سيبادر أي شخص بالتصحيح إذا نودي بلقب يقلل من شأنه، أما إذا نودي بلقب رفيع لا يستحقه فالأمر يختلف. ذلك على غـرار مـا نراه في الأفلام العربية عندما ينادي المواطن المغلوب على أمره الشرطي البسيط (يا حضرة الضابط)، وينادي الضابط الصغير (يا سعادة اللواء)، وهكذا.

اقترح الدكتور بهاء (أو "عم بهاء" كما صرنا نناديه لاحقاً) أن يأخـذني فـي جولـة تعريفية بالأقسام، وبحكم مهنته فقد بدأ بطبيعة الحال بقسم التشريح. لم أكن قد شاهدت إنـساناً ميتاً قبل تلك اللحظة. ولكي يتمكن القراء من تصور الموقف خاصة الذين ينتمون إلى الأجيال اللاحقة؛ أقول إنه على الرغم من وجود التلفزيون الذي كان يبث باللونين الأبيض والأسـود في ذلك الوقت، إلا أن نشرات الأنباء كانت خالية من مشاهد الموت التي نراها يومياً في وقتنا الراهن. لذلك السبب شعرت بالرهبة عندما دخلت وراءه إلى المشرحة. وكانت تمـلأ الجـو رائحة نفاذة أخبرني (الدكتور بهاء) أنها تنبعث من محلول الفورمالين الذي يُـستخدم لحفـظ الموتى. بمجرد أن رفع الغطاء عن أحد الأحواض، زاد تركيز الرائحة النفاذة في جو القاعة. كانت الأحواض مستطيلة الشكل، مملوءة بمحلول الفورمالين، وأمكنني مشاهدة جـسد إنـسان وبعض الأطراف الآدمية، مغمورة جزئياً في السائل بحيث لا تغوص إلى القاع ولا تطفو إلى السطح. يعود ذلك إلى الكثافة النوعية المرتفعة للمحلول. إلى هذه اللحظة، وبعد مرور قرابـة أربعين سنة على تلك الواقعة، تعود بي الذكريات إلى قاعة التشريح والعم بهاء كلما استنشقت رائحة الفورمالين!

كان في وسط القاعة منضدتان من المعدن الذي لا يصدأ [الستينليس ستيل]، ولا أدري هل أراد (عم بهاء) إبهاري أم إرهابي، أو ربما كلاهما معاً، عندما أخرج من أحد الأحـواض ذراعاً ووضعه فوق المنضدة القريبة. تصور ذراع آدمي فوق منضدة من [الستينليس سـتيل]. الذي خفف وطأة الصدمة أن الذراع كان منزوعاً عنها الجلد وقـد تغيـر لـون العـضلات والأنسجة بسبب الغمر في [الفورمالين] لمدة طويلة، فصار لونها بنياً داكناً فبدت غير حقيقية.

غادرت مقر الكلية وعدت بعد أسبوعين، والتقيت بسائر الزملاء، وبدأنا فـي رحلـة السنوات الست التي تقود إلى بكالوريوس الطب والجراحة. يُقال أن طريق الألف ميـل يبـدأ بخطوة، أما في حالتي فقد بدأ طريق الطب بذراع! ذراع آدمية حقيقية علـى منـضدة مـن الستينليس ستيل!

دراسة التشريح في السنتين الأوليين من كليـة الطـب تـستهدف معرفـة التركيـب التشريحي لجسم الإنسان. على رأي ابن عمي عبد المنعم يرحمه الله، الذي كان ينتهـز كـل

فرصة ليعلن للملأ: أن فوزي (الذي هو أنا)، يعرف جسم الإنسان خلّية بخلّية وعضلة بعضلة! في ذلك الوقت لم يكن ثمة مناص من استخدام أجساد الموتى وأطـرافهم. اشـتهر موظـف العلاقات العامة بالكلية واسمه (بورقيعة عبد المجيد) بأنه كان وراء جلب جثامين الموتى مـن إحدى الدول المجاورة. كان وديعاً، مجاملاً، دائم الابتسام؛ بحيث لا تتخيل أنـه تـولى تلـك المهمة. على الرغم من صعوبتها وإثارتها للجدل، إلاّ أنها أسهمت في التعليم الطبي خلال فترة نشأة الكلية وبعدها بسنوات.

تلقينا دروس التشريح في السنة الأولى على يد الأستاذ الدكتور على عبد الله والأستاذ الدكتور محي الدين أبو العينين ثم التحق بالكلية خلال السنة الثانية الأستاذ الـدكتور إبـراهيم داود حلمي الذي بادر بتعليق لوحة كبيرة مكتوب عليها بالعربية واللاتينية عبـارة: "المـوتى يعلمون الأحياء". كان درس التشريح من الدروس الشائقة على الرغم من رائحة الفورمـالين التي تعلق بأجسادنا وأنوفنا وثيابنا وأيدينا. التحنيط بالفورمالين يجعل الأنسجة أكثر صـلابة، والأطراف أقل مرونة، ويغير اللون بحيث تبدو العضلات والأنسجة وكأنها غير حقيقية. ذات يوم كنا نشرح عضلات الصدر، ثم عدنا لتناول الغداء في مطعم بيت الطلبة الواقـع بمنطقـة جليانا (فندق ربيانا حالياً)، وتصادف أن كان من مكونات الوجبة شريحة كبيرة من لحم البقر. وكانت الشريحة المقلّية تشابه في لونها وغلظها عضلات مقدم الصدر التي كنا نشرحها منـذ أقل من ساعة. لم آكل اللحم لعدة أيام بعد ذلك إلى أن تصالحت وجدانياً مع فكـرة التـشريح وتعودت على التعامل مع أجساد الموتى.

درسنا في السنة الأولى أربع مواد، التشريح وعلم الأنسجة والكيمياء الحيويـة وعلـم وظائف الأعضاء. كان الأستاذ المقيم في التشريح كما أسلفت الدكتور علي عبـد الله، وكـان الأستاذ الدكتور محمد توفيق الرخاوي يأتينا زائراً من حين لآخر، وفي علم الأنـسجة كـان أستاذنا الدكتور عبد الفتاح الطيرة والدكتور أحمد سعيد، وفي الكيمياء الحيوية الأستاذ الدكتور كميل أدهم بينما كان الدكتور محمد محمود عبد القادر يأتينا زائراً. أمـا فـي علـم وظـائف الأعضاء فكان أستاذنا المقيم الدكتور محمود هاني أيوب ومعه الـدكتورة زينـب، والأسـتاذ الزائر الدكتور حسن حمدي إبراهيم الذي كان رئيساً لقسم وظـائف الأعـضاء فـي جامعـة القاهرة، ثم صار عميداً لكلية الطب بالجامعة نفسها، ثم صار رئيساً لجامعة القـاهرة. كانـت الجامعة تستضيف الأساتذة الزوار في فندق (الريفييرا) الذي كان يطل على بحيرة جليانا، وما زالت أطلاله قائمة (بجوار البانكينا) إلى الآن في مواجهة فندق (أوزو) من الغرب.

كان الأستاذ الدكتور كميل أدهم شديد الشبه بشقيقه الممثل المصري عادل أدهم، بيـد أنه كان يضع على قمة رأسه قطعة من الشعر المستعار ليواري صلعته، وقد فطنت إلى ذلـك منذ أول محاضرة ولم يصدقني سائر الزملاء؛ إلى أن كانت إحدى الرحلات في منطقة الجبل

الأخضر وكنا نلعب كرة القدم ويشاركنا الدكتور كميل، واندمج في اللعب فضرب الكرة برأسه فوقعت قطعة الشعر الاصطناعي، فلم يكن منه إلاّ أن ضحك وقال بلهجته المـصرية: الله ... هي وقعت! والتقطها ووضعها على رأسه.

باستثناء الزملاء الذين وصفتهم في الحلقة السابقة بأنهم (قفزوا من السفينة) والتحقـوا بكليات وبعثات أخرى، لم يتخلف عن المجموعة التي التحقت بإعدادي الطـب إلاّ طـالبين أو ثلاثة. في بنغازي أسكنتنا الجامعة في عمارة سكنية بمنطقة (جليانا)، ولم يكن الجسر الحـالي مقاماً، بل كان هناك جسر صغير يمتد فوق مضيق مائي بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية للمنفذ الموصل بين البحيرة والميناء. سكنت مع صديقي المهدي الجيباني في غرفة ضمن شقة سكنية تحتوي على أربع غرف، وكان مقرراً أن يسكن كل غرفة طالبان. لم يكن يشاركنا في الشقة أحد من كلية الطب، بل كان كل شركاؤنا من كليتي الآداب أو الاقتصاد، وكلهم قادمون من مدينة طبرق. كانوا: إبراهيم عمر حامد (كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية)، عبد الـسلام الجروشي (كلية الاقتصاد)، عبد الكريم جملي (كلية الاقتصاد)، الساكر عبـد الحميـد (كليـة الاقتصاد)، عبد السلام مازق المريمي (كلية الآداب قسم التاريخ)، عبد الـسلام آدم المريمـي (كلية الآداب). تعرفنا إليهم لاحقاً وصار من طقوسنا اليومية أن نجتمع في غرفة إبراهيم عمر بعد تناول وجبة الغداء لنشرب الشاي الأخضر الذي كان يعده بحرفية عالية. في البداية كانت علاقتنا معهم مقتصرة على التحية كلما التقينا في ممر الشقة. وذات يوم كنـت ومهـدي فـي غرفتنا وإذا بباب الغرفة ينفتح بعنف ويدلف إلى الغرفة جسدان متشابكان في صراع عنيـف، يرتطمان هنا وهناك. بطبيعة الحال هببنا لفض العراك ونجحنا بعد مشقة ثم صالحنا بينهمـا، وهما عبد السلام مازق وعبد الكريم جملي. لاحقاً؛ بعد أن توطدت علاقتنا لاحظنا أن المعركة كانت تمثيلية تذرعوا بها للتعارف معنا! طريقة عجيبة للتعارف، ولكنهم لم يشاءوا أن يطلبـوا التعرف إلينا بالطريقة الحضارية المعروفة ظنا منهما أن أي تقارب مباشـر سـيكرس لـدينا الشعور بالاستعلاء على اعتبار أننا (طلبة الطب) متعالين على سائر الطلبة! ذلك ظنهم بطبيعة الحال؛ ولكن مع مرور الوقت أثبتنا لهما ولسائر الزملاء من الكليات الأخرى أننا أبعـد مـا نكون عن الاستعلاء. عن طريق هذه المجموعة تعرفنا إلى كل من حـسين علـي الرفـادي وخميس بشير الرفادي وناصر العلام ومفتاح المغربي وأحمد مصباح المغربي وأحمد إدريس وأبوبكر هدّية ومحمد الورفلي (بيكه)، وسالم الحريري.

في تلك السنة التحق بنا بعض الطلبة والطالبات الذين درسوا الـسنة الإعداديـة فـي مصر وهم: سالمة يوسف المغربي، أحمد علي التير، عطية الطاهر اجعي، محمـود محمـد العمامي، عبد المنعم الصديق قريو، وراوية سالم ياسين ونزيهة بن سـالم وعائـشة عبـد الله اسميو.

في تلك السنة كان عميد الكلية الدكتور رءوف حمدي بن عـامر، والتحـق معيـدون ليبيون بالكلية أذكر منهم الدكتور عمر عبد الجواد الفريطيس، والدكتور محمد المهدي الفلاح، والدكتور فوزي بوغرارة، والدكتور نصر العنيزي. اتخذت إدارة الكلية مقراً لها في مبنى من دورين ما زال قائماً إلى الآن، اشتهر بأنه (مستشفى الأدفينتيست سابقاً)، يقع على شارع جمال عبد الناصر أمام الحديقة. ضمت الإدارة كل من الموظفين: أحمد المنفـي، عبـد الله خليـل، أبوبكر العماري، بورقيعة عبد المجيد، محمد بالحسن وعبد ربه افتيتة. السائقين أيضاً كان لهم دور مهم في مسيرتنا، فكان سعيد الوريدي، وإبراهيم الصور، وأحمد المعداني.

انضم إلى عم بهاء (رئيس الفنيين بقسم التشريح) شابين ليبيين هما: علـي الـشكري وحسن كرواد. ومن الفنيين المصريين الآخرين التحق بالكلية تلك السنة كل من عم سيد (قسم الفسيولوجي أو علم وظائف الأعضاء) وعم حسان (فني معدات). أما قسم الكيميـاء الحيويـة فكانت به فنية من زغرب (يوغوسلافيا)، ثم انضم إلى المختبـر فنـي ليبـي هـو عبـد الله المسماري وعلي الفيتوري. وكان المشرف على القسم الدراسي والمعامل عبد الله بوسن.

خلال تلك السنة كنا في الكلية كأفراد الأسرة الواحدة، الأساتذة والمـوظفين والفنيـين والطلبة. الجميع معروف للجميع. توطدت علاقتي بالأصدقاء المهدي الجيباني وإبراهيم بيـت المال وسالم التيتلي وعبد العزيز شمبش وعبد الفتاح الأخضر خلال تلك السنة. طبعاً العلاقـة كانت مستمرة وتتعمق تدريجياً مع كل الزملاء دون استثناء. أنشأنا صحيفة حائطيـة وبـدأت أكتب فيها مع آخرين، أكثرها كتابات بسيطة وأشعار ساذجة، عندما أتذكرها الآن أسخر مـن نفسي، ولكنها كانت مرحلة طبيعية وضرورية من مراحل النضج العقلي والنفـسي والفكـري والأدبي والاجتماعي.

من الأشياء المميزة في تلك السنة اشتراكنا في اليوم الرياضي الجامعي الذي أقيم فـي المدينة الرياضية، ونافسنا في معظم الألعاب، ولكن نتيجة مباراتنا في كرة القـدم مـع كليـة الآداب لا تُنسى حيث هزمنا شر هزيمة فخرج خصومنا منتصرون بعد أن أدخلوا في شـباكنا عددا من الأهداف تقارب عدد أعضاء الفريق. اشتركت أنا وصديقي فوزي بركة فـي كـرة التنس الأرضي، فلعب أولى مبارياته مع حسن الهنتاتي من الآداب، ولعبت أول مبارياتي مـع عبد السلام المهدوي من الاقتصاد، ولم يستطع أي منا مجاراة خصمه فضلاً عن التغلب عليه، فخرج كلانا من الدوري من أوله. الرحلات الربيعية إلى أطراف الجبل الأخضر كانـت مـن الذكريات التى لا تنسى، ولم نكتف برحلات الكلية بل كنا نرافق أصدقاءنا من الكليات الأخرى في رحلاتهم.

مبنى الكلية المؤقت على صغره، كان يحتوي على كل ما نحتاجه من قاعـات درس ومختبرات وعدد من المكاتب ودورات المياه وخزانات شخصية للطلبة مزودة بأقفال لوضـع

أدواتنا ومعاطفنا البيضاء وما إلى ذلك. أما المقهى (الكافيتيريا)، فقد عهد به إلى شخص يدعى (علي) لم أعد أذكر اسمه بالكامل. تلك السنة شهدت كافيتيريا الكلية الصغيرة لقاءً مع قائد الثورة العقيد معمر القذافي عندما زارنا فجأة ليطمئن على أحوالنا بعد أن كان تدخل شخصياً في السنة الفائتة لكي يتحقق إنشاء الكلية في بنغازي. ذات صباح فوجئنا بحضوره فاحتفينا به بعفوية وبساطة ودعوناه للجلوس معنا في ذلك المقهى الصغير، وشرب فنجان قهوة قدمه إليه أخونا (علي)، وسأل عن أحوالنا بصفة عامة والدراسة بالكلية الناشئة.

كنا ننتقل من بيت الطلبة في جليانا إلى مقر الكلية داخل سياج مستشفى السابع من أكتوبر مشياً، نجتاز الجسر الصغير ثم شارع عبد المنعم رياض وننعطف في نهايته إلى اليمين لنصل إلى بوابة المستشفى. ذات يوم كنت ماشياً ومعي صديقي مهدي الجيباني فتوقفت سيارة فولكس فاجن خنفساء تبرع سائقها لتوصيلنا، وتبين أنه الدكتور منصور محمد الكيخيا الذي كان رئيساً لقسم الجغرافيا بكلية الآداب.

شعرنا في تلك السنة باقترابنا من تحقيق طموحنا في أن نصير أطباء في المستقبل، فمقر الدراسة ملحق بمستشفى، وتعودنا على ارتداء المعاطف البيضاء، وبدأنا في دراسة تشريح جسم الإنسان ووظائف أعضائه، وكان كل أساتذتنا أطباء في الأصل، وأشعرونا بالقرب منهم بتواضعهم ودماثتهم. كل ذلك جعلنا نرى مستقبلنا واقعاً ملموساً وملأنا أملاً وحماساً ومثابرة في المضي قُدماً لنكمل المشوار الذي كنا نعرف أنه طويل وشاق ولكنه لم يكن مستحيلا.

وبما أنني كنت حديث عهد بمدينة بنغازي، فقد استكشفتها في تلك السنة فعرفت شوارعها وأزقتها وأسواقها. ارتدت دور عرض الأفلام وبعض النوادي الرياضية والتحقت مع بعض الأصدقاء بمعهد الموسيقى التابع للجامعة حيث تلقينا دروساً من الأستاذ عبد الله السباعي، ولكننا لم نستمر للأسف. في تلك الفترة كنت أستمع إلى أغاني عبد الحليم وأم كلثوم والدوكالي وبالخياط والبيتلز، موعود ومن أجل عينيك وكي تعجبني والقمر الأحمر وإماجين لجون لينون. كنت أتابع وسائر الزملاء تقليعات الملابس (الموضة) ولكن دون إفراط، وأترك شعري طويلاً ولكن باعتدال. تعرفت إلى مدرج رفيق بكلية الآداب وارتدت كثيرا من المحاضرات التي كانت تنعقد في إطار النشاط الثقافي للطلبة. على الرغم من التيارات المختلفة التي كان يعج بها المشهد السياسي الطلابي إلاّ أنني تمكنت من البقاء حراً، لم ألتحق بأي منها ولم أناصب أي من الذين اعتنقوها العداء.

إحدى القاعات بمبنى إدارة الكلية زودت بطاولة للتنس (كرة المضرب)، واستفدت من بعض الطلبة الماهرين في تعلم اللعبة وإتقانها. من أفضل اللاعبين كان كل من: عثمان أحمد بشير، على المهدي عبيد، حميد ضو الطاهر، سالم علي التيتلي.

تقرر أن تقوم الكلية برحلة طُلابية جماعية عن طريق البر إلـى جمهوريـة مـصر العربية خلال عطلة الصيف اللاحقة للسنة الدراسية. لم أكن قد سافرت خارج ليبيا قبل ذلـك، وكان ذلك حال معظم الزملاء. وبما أنني الوحيد القادم من درنة فقد طلبت من الأستاذ أحمـد المنفي المرافق الإداري للرحلة أن يسمح لي بالسفر إلى درنة قبل موعد الانطلاق لكي أقضي بضعة أيام مع والديّ وإخوتي، على أن ألتحق بهم في درنة عند مرورهم منها، فكان لي مـا أردت. توقفت الحافلة أمام منزلنا الواقع على شارع رويفع بن ثابت الأنصاري فركبت معهـم وانطلقنا. أمضينا الليلة في أحد فنادق مدينة طبرق وانطلقنا في الصباح الباكر. مررنا بالعلمين ومرسى مطروح ثم الاسكندرية التي توقفنا بها لتناول الغداء ثم تابعنا السفر إلى القاهرة. فـي القاهرة أقمنا بفندق شهرزاد على شارع النيل بمنطقة العجوزة بالقرب مـن مـسرح البـالون الشهير، وسكنا في غرف ثنائية وثلاثية. كان زملائي في الغرفة كل من عمـران الفيتـوري وعبد الله اقليصة. كان المشرف على تنظيم الزيارات بالقاهرة الدكتور محمد المهدي الفـلاح الذي كان معيداً بالكلية، وقد انضم إلينا في القاهرة. زرنا كليات الطب بجامعة القاهرة وعـين شمس، وسافرنا إلى المنصورة وطنطا وزرنا معالمهما وكليتي الطب بهما. زرنا خان الخليلي في القاهرة والأهرام والمتحف المصري وحديقة الحيوان بالجيزة والقناطر الخيرية الـشهيرة. التقيت ببعض الأصدقاء من درنة الذين كانوا يدرسون بالقاهرة وكانوا يسكنون بمنزل في منيل الروضة، وهم فوزي رقص وعبد العزيز الزوكي وفوزي بدر وأبوبكر اسويسي وصلاح أبو النجا. زارنا في الفندق حسن بن خيال؛ ولم أكن أعرفه ولكنه صديق للزملاء مـن بنغـازي (إبراهيم وعبد الله وأحمد سوالم وعمران) وخرجنا سوياً ومررنا على مطعم نعمة الذي كـان يبيع شطائر فول وطعمية وبسطرمة وغيرها، كانت تتميز بأنها صغيرة الحجـم جـدا. كمـا توقعت لم يتذكر حسن بن خيال هذه الحادثة عندما رويتها له بعد مضي ثمان وثلاثين سـنة، ولكنه أخبرني بأنه كان يُفترض أن يدرس معنا الطب ولكنه انسحب عنـدما ألغيـت البعثـة والتحق ببعثة طب الأسنان. مررنا بالإسكندرية ونحن في طريق العودة حيث أقمنا ثلاثة أيـام في فندق المعمورة بالاس بالمنتزه، وفي الإسكندرية التقيت بالصديق أحمد الجاضرة الذي كان يدرس الطب بجامعة الإسكندرية ويقيم بشقة قرب كلية الطب.

كان سقف توقعاتي مرتفعاً جداً قبل أن أزور مـصر وأشـاهد الواقـع رأي العـين. معلوماتي عن مصر كان مصدرها الإعلام المسموع والمقروء والمرئـي، وجميعهـا كـان منضبطاً بآلة الدعاية الحكومية. تحكم الدول في أجهزة الإعلام وغياب الشفافية يـؤدي إلـى حجب الجانب المظلم من الواقع ومنع النقد حتى إن كان بناءاً. كنت أحلم بنهر النيل وما نـسج حوله من أساطير وقصص رومانسية وأشعار وخيال عبر التاريخ، فشاهدت قناة مـن المـاء العكر شبه الراكد، إن هب عليه بعض الهواء؛ وهذه حالة نادرة، يأتيك محملاً بـروائح غيـر

طيبة. أما الأرصفة فكانت مرتفعة وغير نظيفة ومليئة بالحفر والأجسام الناتئة، فـإن نزلـت لتمشي على الطريق المرصوف غاص أسفل حذاءيك في الإسفلت المنصهر بفعـل الحـرارة ورداءة الصنعة. الجو في المتحف المصري خانق ومغبر ولا يمكن لأحد عدم ملاحظـة قلـة العناية بالآثار القيّمة التي تعبر عن حضارة 7000 سنة. في الوقت الذي كانت فيـه أسـواقنا غنية بالبضائع الراقية سواء فيما يخص المأكل أو الملبس أو سائر الأدوات، وجدنا في أرض الكنانة محلات تجارية تكاد تكون فارغة. طبعاً لعب فصل الصيف وارتفاع درجـة الحـرارة دوراً كبيراً في عدم استمتاعي بالرحلة، إلاّ أن حقيقة التضارب بين المعلومات المسبقة المبالغ في تجميلها وتلميعها، والواقع الذي صدمني بشدة تواضعه، جعلني أكوّن انطباعـاً سـيئاً لـم أستطع نسيانه على الرغم من مضي أربعة عقود.

أثناء زيارتنا لجامعة القاهرة استطعت أنا وبعض الزملاء شراء هياكل عظميـة مـن الفنيين بقسم التشريح بكلية الطب. استلم كل منا مجموعة عظام كاملة في صندوق من الكرتون ودفع مقابلها خمسة جنيهات مصرية بالتمام والكمال! مبلغ زهيد مقابل عظام إنسان، لم نكـن ندرك حينها أنه لم يتبرع بجسده ولا بعظامه طوعاً ولم يخطر ببالنا أن نتـساءل. أسـأل الله المغفرة لي ولزملائي، وربما كانت الغاية النبيلة مبرراً للطمع في المغفرة. أخذنا العظام معنـا إلى بنغازي، واستفدنا منها بطبيعة الحال في مذاكرة دروس التشريح. الغريب في الأمر أنـه أثناء الدراسة لم يجد أحد منا غضاضة في الاحتفاظ بعظام آدمية في غرفته، فقد ينام الواحـد منا وفوق المنضدة المجاورة لسريره جمجمة آدمية! لو استقبلت من أمري ما اسـتدبرت لمـا كنت فعلت ذلك. لا أتصور أن أفعل ذلك الآن. لقد تطورت وسائل تعليم التشريح الآن بحيـث لم يعد من الضروري أن يستخدم طلبة الطب الأجساد الحقيقية في الدراسـة، بـل صـارت الوسائل البديلة المعتمدة على مجسمات اصطناعية ونماذج على الحاسوب أفضل بالنسبة لمـن يريد تعلّم علم التشريح.